مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية سلسلة العلوم الإنسانية عدد (6) لعام 1417 هـ-1996 م عدد خاص بندوة التعريب وصلته بشخصيتنا الوطنية والقومية

التعريب والشخصية الوطنية

د. مسعود بوبو*

لا تتسع هذه العجالة لتأصيل مصطلح التعريب أو للإفاضة في الحديث عن مدلوله الذي اختلف من عصر إلى آخر، أو من باحث إلى آخر، وربما اختلف باختلاف المكان. وفي اختصار شديد يمكن القول:

إنَّ أصل معنى التعريب لغة يتجه إلى الإصلاح والإفصاح والإبانة. ولا يقف المتخصص طويلاً عند بعض معانيه الجانبية كفساد المعدة، أو أن يُقْطَعَ سَعْفُ النخل ويقال للذي يقطعه: المُعَرِّب. فحظّ مثل هذه المعاني قليل في الاستخدام والنصوص.

أما المعنى الإصلاحي فقد اتجه ابتداءً إلى نقل اللفظ من العجمة إلى العربية، وأن تتفوه العرب باللفظ الأعجمي على منهاجها، أي بتعديل نطقه ليوافق العادات الصوتية العربية، وصيغ العرب وقوالبها العامة، إن كان ذلك سائغاً منقاداً من غير كلفة أو تعمل أو لبس..

وفي ذلك إبدال أصوات، وتغييرٌ في الشكل بالحذف أو الإضافة أو الاختصار.

وعلى صعيد التطبيق والأمثلة قرن بمفهوم التعريب مصطلحات لغوية أخرى كالإجراء، أي (صرف الاسم، أو تنوينه)، وكالتمكين أي (إدخال أل التي للتعريف بالعربية) عليه، وكالترجمة، ولعل من إشاراتهم القريبة إلى هذا المفهوم قول الأصمعي: "الخندقوق: نَبْطي، ولا أدري كيف أعربه إلاّ أني أقول: الذَّرَق".

كان هذا كله في إطار البحث اللغوي الخالص، وإلى جانبه سُمِع في وقت مبكّر قول عمر بن الخطاب وعبدِ الملك بن مروان بتعريب الدواوين، وتعريب الأمصار، وهذا هو القصد الذي ارتضاه الباحثون المحدثون غالباً في كتاباتهم ومشروعاتهم ومؤسساتهم التي أحدثوها لهذا الغرض. وعن صلة هذا التعريب العام بالشخصية الوطنية، أو القومية نسوق الأفكار التالية: أولاً:

إن التعريب تجربةٌ عرفها العرب والعربية منذ فجر الإسلام، وحتى نهاية الدولة العباسية، مروراً بالدولة الأموية. وقد أثبتت هذه التجربة جدواها فكان لها آثارها المتنوعة

* الدكتور مسعود بوبو أستاذ في جامعة دمشق-دمشق - سورية.

التي أغنت الحضارة العربية الإسلامية: في فكرها ومجتمعها وعلومها بفوائد ما زالت موضع إعجاب العالم وتقديره إلى اليوم، ولم يكن لها من الآثار السلبية ما يستدعي الحذر والتحفظ والتردد.

والعرب حين عربوا الدواوين، والعلوم، وأنشأوا دار الحكمة زمن المأمون أبقَوْا على شخصيتهم، ولم يكن في عملهم ما يسيء إليها أو ينتقص من مكانتها، فما الذي يحول دون الإقتداء بهم والإفادة من تجربتهم الرائدة؟!.

وللمتعلقين باللغات الأجنبية أداةً للعلوم نقول: صحيح أن تدريس العلوم بلغاتها الأجنبية عمليةٌ قد تكون أكثر سهولة عند بعضهم، وقد تكون أكثر دقة وتوفيراً للمراجع الأصول التي نفتقر غالباً إليها، ولكن الصحيح أكثر أنَّ في ذلك تخلياً تدريجياً عن الذات القومية، واستسلاماً طوعياً للآخرين وإقراراً صريحاً بالعجز والتبعية، الأمر الذي لا تقبل به أمة خاملة الذكر، فكيف تقبل به أجيال الأمة العربية مع ما لهذه الأمة من صدارة في الحضارة البشرية؟! أفيَقْبل الأبناء أن يبدلوا بآبائهم آباءً غرباء؟.

قد يُفَصِّل قائل في بسط الصعوبات التي تعترض عملية التعريب، وقد نوافقه نحن على وجاهتها، ولكننا لا ينبغي أن نتغافل عن حقيقةٍ ثابتة هي أن كلا الاختيارين: التعريبَ ونقيضَه ينطويان على صعوبة. وما قيمةُ عملٍ أو علم أو إنجاز ما لم يواجه الإنسان في معالجته الصعاب والعقبات؟. كل صعوبة يمكن تجاوزها، بل يطيب بالصبر والتتبع والمثابرة. وأن نجابه العناء ونحافظ على شخصيتنا خير لنا من أن نذوب في الآخرين ونتخلى عن الأصالة.. إننا نُعِدّ جيلاً، بل أجيالاً ليصونوا شخصيتنا، ولهذا يحسن أن نحضهم على الإبداع والمواجهة في كل الميادين، لا على الإحباط وعقد النقص والاستنقاع. وكل علم مهما علا يظل مغصوصاً به ما دامت الأمة استطالة ذيلية للآخرين فيه.

ثانياً:

إن لنا في الأمم الأخرى لَمَثَلاً ينبغي أن نقف عنده ونتفحص مدى صوابيته ونقوِّم نتائجه، فإن بدا صحيحاً صالحاً أخذنا به، وإن لم يك كذلك أغفلناه. وما وقفنا عليه في هذا الميدان هو أن الأمم الأخرى أبقت على شخصيتها القومية ودرَّست العلوم والآداب بلغاتها القومية. من ذلك ما فعلته كوريا وأسبانيا واليابان ويوغسلافيا (السابقة)وبلغاريا وفنلندا. ولقد سارعت فرنسا إلى "فَرْنَسَة" العلوم بدلاً من تحصيلها بالإنكليزية، وكان جهاز الترجمة عند لينين مئة ألف مترجم لنقل العلوم الغربية إلى الروسية، إبقاءً على الشخصية القومية، وكذلك فعلت اليابان التي يبلغ عدد حروفها عشرة آلاف حرف، والصين التي كان فيها ثلاث مئة لغة والتي

عدد حروف لغتها الموحدة أكثر من أربعة وأربعين ألف حرف. ولم تمنع الصعوبات الكثيرة والأحوال الخاصة من التخلي عن اللغة الإنكليزية التي كانت لغة العلوم لهذه الدول في بداية نهضتها. وفي عملية "الفتنمة" التي اعتمدها: هو شي مِنَه" بفيتنام خير شاهد على الاعتزاز بالأصالة الوطنية وباستقلال القرار.. فكيف إذا تأملنا لغة بقيت ميتة نحو خمسة عشر قرناً كالعبرية، ومن الموات جاءت لِتُدرّس الإسرائيليين علوم العصر بلُمامات لغوية من هنا وهناك.. ولم يقبل أصحابها أن يكونوا امتداداً لحلفائهم الأقربين حرصاً على شخصيتهم التي يريدون إبرازها مستقلة، ولو على حساب حقوق الآخرين أو باستخدام سلاح التعصب العنصري وإزكاء المشاعر الدينية والعرقية. وإن الدول التي كانت في إطار المنظومة الاشتراكية لم تتخلَّ عن لغاتها القومية مع إقرارها الصريح بدورانها في فلك الاتحاد السوفييتي السابق مذهباً ومصيراً، وخير مثال على ذلك ما كان يسمى ألمانيا الشرقية.. أما الدول والأمم التي لم تعتد بلغتها القومية فقد بقيت متكئة على أصحاب اللغة التي تتعلم بها، بل بقيت متخلفة وكالمستجدية لا تعرف اليوم كيف تختار لغتها إن فكرت بالعدول عن غلطتها القديمة.

إن هناك دولاً تسن القوانين وتفرض العقوبات على من يستعملون غير اللغة الوطنية في المجالات العلمية والرسمية حفاظاً على لغتها، رمز شخصيتها الوطنية كما فعلت فرنسا وبولونيا.. وهناك دولاً تسعى لاعتماد أي لهجة محلية تصلح أن تكون لغة قومية بديلة عن لغة أجنبية كما هو الأمر في بعض الدول الإفريقية وكل ذلك وليد اعتداد بالوطنية التي تظل اللغة هويتها ووعاءها.

ثالثاً:

التعريب عملية علمية تعليمية، وفروع العلم تتكامل وتترافد لتكوّن منظومة معرفية متداخلة متكاملة، ولا يتم ذلك التكامل ما لم يقم على أسس لا تغفل، في مقدمتها اللغة الأم القومية التي كتب بها التراث العربي، من أدب وعلم ودين. ولا نعتقد أن أمة عاقلة ترضى أن تتخلى عن لغتها وأدبها وعلمها ودينها وتبدأ علماً جديداً من فراغ، أو من الصفر، أو تحصّل قسماً من معارفها بلغةٍ ما وقسماً آخر بلغة ثانية لتخرج بمعرفة يعتورها القلق والتوزّع، أو تفتقر إلى الإبداع الأصيل في فكرها بكامله. وتزداد هذه الصورة إشكالاً وتعقيداً حين تتعدد مشارب المتعلمين والمتخصصين فيكون تحصيل بعضهم باللغة الإنكليزية، وبعضهم باللغة الفرنسية، أو الألمانية، أو الروسية..

قد يقول قائل إن التعليم العالي في بعض أقطار الوطن العربي يتم بالانكليزية، وبعضه بالفرنسية كما في دول المغرب. وتبدو نتائج هذا الاتجاه مقبولة. أما أنا فيبدو لي أن ما يتوهمه الآخرون علماً حديثاً أو علوماً

تطبيقية وتكنولوجية، هو في معظمه من نتائج العلم وليس من جوهره أو من أصوله، فاستمداد المعرفة على هذا النحو بعيد عن الإبداع، (ولا يعرف الشوق إلا من يكابده). ثم إن هناك تراجعاً واضحاً وعلنياً، بل وشكوى من أن الأجيال بدأت بالاستلاب و التغريب والابتعاد التدريجي عن لغتها القومية. أضف إلى ذلك أنه ليس بمقدور الأجيال أن تفهم العلوم بلغات أجنبية لم تألفها منذ الطفولة و لم تتقنها في سن الشباب كما يمكن أن تفهمها بلغتها القومية.

ومما له كبير الأثر من تجاربنا الحديثة في التعريب جهود الرواد المخلصين في هذا الميدان، تلك الجهود التي طغى فيها الحافز الوطني على الرسالة العلمية التربوية حتى ظاهر الحس الوطني الواجب العلمي فتكاملا كالمعجزة.

لقد كان من تولوا التعليم في دمشق مع بداية ما يسمى بتعريب التعليم ___ كانوا ممن تعلموا التركية، وبرحيل العثمانيين سنة 1918 واجهوا هذه المهمة الكبيرة ونجحوا بالعزيمة والإخلاص وصدق الانتماء في تذليل الصعاب وأداء الرسالة التي ندبوا، أو ندبوا أنفسهم لها، ومن هؤلاء من تولى التدريس في المدرسة الطبية العربية التي أسست في الثاني عشر من كانون الثاني سنة 1919، نذكر منهم ميشيل الدمشقي الذي كان أستاذاً سابقاً في مدرسة الطب العثمانية في اسطمبول، والأستاذ مرشد خاطر من خريجي المدرسة الطبية الفرنسية في بيروت، والدكتور عبد الرحمن شهبندر من خريجي الكلية الأمريكية في بيروت.. فهؤلاء الذين اتصلوا بالغرب، وأولئك الذين اقتصروا على الدراسة بالتركية كانوا النواة الأولى للتعريب الذي جعل سورية سباقة إلى اليوم في الانتصار للعربية، وفي الحرص على الشخصية القومية.

ولا ننسى في هذا المقام أن نذكر بأن اللغة التركية كانت لغة جميع دوائر الدولة ومؤسساتها عشية انهيار الحكم العثماني، ومع ذلك فقد استطاعت حكومة الملك فيصل في سورية و الأردن أن تعرب إبان عشرين شهراً جميع دوائر الدولة ومؤسساتها الاجتماعية و العلمية والثقافية(تم هذا بين سنتي 1918-1920).

صفوة القول إن النزعة الأصيلة عند العرب -حكومات وأفراداً- تتجه بعفوية وأصالة فطرية نحو التعريب، ومن هنا جاءت القرارات الرسمية التي تنص على جعل التعليم إلزامياً باللغة العربية في الجامعات وإن لم يتوج بالتطبيق. من ذلك مثلاً أن قانون جامعة الاردن "عمان اليوم" التي أنشئت عام 1962 ينص على أن تكون اللغة العربية هي لغة التدريس، وتبعها في ذلك قانون جامعة اليرموك. وفي العراق صدر سنة 1976 قرار يقضي بتعريب التعليم العالي والجامعي تعريباً كاملاً، وألزمت المؤسسات التعليمية تطبيقه

منذ مطلع عام 1977-1978، إلا الكلية الطبية التي أمهلت حتى عام 80-1981. واستقل السودان عام 1956، وفي سنة 1971 أنشأت جامعة الخرطوم قسماً للترجمة والتعريب. والسودان ينشط اليوم بإلحاح وإصرار لتعريب التعليم بكامله. وفي المغرب تقرّر عام 1965 رسمياً تعريبُ سائر أجهزة وزارة العدل والمحاكم، وأصبح لزاماً على المحامين أن يرافعوا باللغة العربية أو يتركوا ساحة المحكمة!. تخيّرتُ هذه الأمثلة لأخلص إلى القول: إن العرب -مواطنين ومسؤولين- مع التعريب، ومع القرار الذي يصون العربية ويعتزُّ بالشخصية القومية.

رابعاً:

للتعريب آفاق أو مدارات يتسع فيها عن دائرة العلوم والمصطلحات، ويتجاوز إطار المصطلح اللغوي والترجمة وتصوُّر النحاة، ويتنوّع ليشمل جميع مجالات الحياة في المجتمعات العربية، ويمكن أن نطلق عليه تجاوزاً "التعريبَ الروحي"، ونعني به تعريبَ الفكر والمجتمع والأجيال والمستقبل والمسميات والسلوك وأنماط التعامل. حتى نبدوَ للعالم بشخصيتنا القومية، وهُويّتنا العربية مُبتدَئين من التزييف والتغريب والاستلاب.. حتى لا نكون خليطاً من المتناقضات، أو نسخاً من مسوّدات صُوَرِ الشعوب الأخرى.

وقبل أن يسارع العقلاء إلى تسمية هذا التصور، أو هذه الأفكار نقول: إن التماس الأصالة، والبحثَ عن الصفاء أو النقاء لا يعني الانغلاق أو التعصب أو العنصرية، فالعرب أمة عُرفت بالتسامح واستوعبت الأديانَ والقوميات والثقافات بعقل غنيّ بالموضوعية والتفهم والنّصَفة، وأعطت الحضارات والأمم المجاورةَ كثيراً من قيمها وأخلاقها ولغتها، وأخذت في مُقابل ذلك ما كانت بحاجة إليه من الألفاظ والمسميات ونُظم الإدارة ومظاهر الحياة والعمران والفن وآلة الحياة. بَيْدَ أن العرب لم يذوبوا في الأمم الأخرى، وبقيت لغتهم محافظة على خصائصها وأحكامها واستمرارها، كما لم تستمر لغة بهذا التماسك والكمال على وجه الأرض حتى الساعة. وثمة لغاتٌ ليس لها مثل هذا التاريخ العريق، ولكنها بدت صالحة للعلم والحضارة والبحث وكل متطلبات الحداثة.. وينبغي أن يكون ذلك عظة لنا، وحافزاً موضوعياً على تحكيم العقل والمنطق في انتهاج التعريب.

إن علينا أن نعرِّب العلوم والمسميات الحديثة، وأن نتحاشى ما استطعنا تملُّقَ المتفرنجين باعتماد مسمّيات أو تسميات أجنبية في المحافل الرصينة، أو في الحياة العامة، أو في الخدمات والمرافق السياحية والإعلامية والخدمية. وحتى في الدعايات التي باتت تتسرب إلى أسماعنا وذواكرنا كالأوبئة.. فلنحذَرْ من هذا التغريب قبل استفحاله.. ولْنبقِ في الحُسبان أن عملية التعريب تطلّب

أساساً لا معدى عنه هو الإخلاص للعلم وللعربية، وصدق التصميم على إعلاء الشخصية القومية في هذا الميدان، وإتقانُ اللغة العربية إتقاننا للغات التي سنعرب عنها، حتى لا يكون كلامنا صرخة في القفار..

مقدمة

من الد
أبين د
والعربي
التذكير
من لغة
لكل من

إلى أخر
هذا المذ
هذا الكَ
في نفس
نقل نص
يعيد بها
الدلاليـ
المنقول إ

---

* الدكتور ؛